المحاضرة الثالثة و الخامسة مضامين السرد في السير الشعبية/ السير و التراجم

معنى السيرة:

السيرة لغة في جل المعاجم بمعنى الطريقة والهيئة والحالة والسلوك والمذهب والسنة، جاء في لسان العرب: السيرة الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة والسيرة الهيئة، وسير سيرة حدث حديث الأوائل[1].

أما اصطلاحا فيحيل لفظ السيرة على النهج ومسار الحياة، وهي نمط سردي حكائي ينتظم في فضاء زماني ومكاني محدد، يتولى فيه السارد (الراوي) ترجمة حياة ذات خصوصية في مجال معرفي أو حيوي مميز، فيها من العمق والغنى والفائدة ما يجعلها حقيقة بأن تروى وتقدم تجربة للآخرين، وهي نوع من الأنواع الأدبية يجمع بين التحري التاريخي والمتعة القصصية، قد تسرد حياة إنسان ذا شأن عادة، أو أحداث أو حروب في مرحلة متصلة بحاكم معين[2]. وقد تحتوي حياة أكثر من شخصية أو جوانب من حياتهم، كما قد تطول أو تقصر[3]، قد يؤلفها السارد نفسه عن حياته فتسمى سيرة ذاتية، وقد يضعها آخرون في حياة شخصية ما فتسمى سيرة غيرية أو سيرة موضوعية، وقريب منها مصطلح الترجمة الذي لازم لفظ السيرة فتردد في كثير من الدراسات استخدامهم "التراجم والسير" مع ما بينهما من فروق، وإن اتفقتا في التعريف بشخصية فاعلة ما مع ارتباط السيرة أول الأمر بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم إضافة إلى خاصية الاستفاضة والتفصيل والطول ، أما الترجمة فتأتي موجزة مقتضبة، فهي عبارة عن خلاصات موجزة تعرف بشخصيات مشهورة في مجال من مجالات المعرفة مثل كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة ومثله "وفيات الأعيان" لابن خلكان... .

تعود الجذور الأولى للسيرة في التراث العربي إلى القرن الهجري الأول، فكأنها ديوان المسلمين الذي يحتوي تراجم لمئات آلاف المسلمين (جنود/ علماء/ زهاد/ عشاق/...) ولا يذكر لفظ السيرة إلا وأحال على السيرة العطرة للرسول صلى الله عليه وسلم[4]. كما يقترن أيضا بالمغازي التي تمجد الأبطال وأفعالهم وفروسيتهم.

السيرة النبوية الأصل الموجه لفن السيرة[5]:

شكلت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وفي القرون اللاحقة موضوعا لعدد من المرويات، منها ما وضعه محمد بن إسحاق (ت151هـ/768م) الذي تعد مدونته "كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي" الصورة شبه الكاملة لمرويات شفاهية كثيرة، قبل أن يأمر الخليفة المهدي ابن إسحاق بتدوينها، واكتملت في عهد عبد الملك بن هشام على يد رواة محترفين خلفهم ابن اسحاق أمثال (زياد البكائي/ سلمة بن الفضل/ يحي بن سعيد بن أبان/ عمرو بن عبد الله السلمي/ الهيثم بن عدي/ أحمد بن خالد الذهبي) وعن ابن إسحاق وهو من أوثق الناس روى ابن هشام (ت218هـ) السيرة النبوية وهذبها ونقحها وحذف منها ما لا يليق بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أشار ابن هشام إلى ما لحق بالسيرة مما ليس منها بما في ذلك الشعر، ويجمع الدارسون على أن سيرة ابن هشام هي أشهر مدونة في السيرة النبوية إلى يومنا هذا[6]، حتى سمي ابن هشام بـ "رئيس أهل المغازي[7].

وقد صيغ متن السيرة النبوية في معظمه صياغة قصصية تتخلى في أحيان كثيرة عن الإسناد، كان ابن اسحاق يتصرف في ترتيب المرويات، ويهمل في بعض الأحيان أسماء الرواة، ويسند الخبر الواحد إلى مجموعة من الرواة. صور متن السيرة غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وعرضها على شكل وحدات قصصية تصف شخص الرسول وغزواته. ويقدم متن السيرة بأجمعه وصفا شاملا ومفصلا لشخصية ذات أهمية اعتبارية في التاريخ الإسلامي والإنساني على الإطلاق، إضافة إلى شخصيات معاصرة له كالصحابة والقادة والخلفاء[8].

أما أسباب وضع السير وأهدافها فدينية أولا ثم اجتماعية وسياسية في مراحل لاحقة وترفيهية في بعض الأحيان مثل سيرة سيبويه التي خالطتها شخصيات هزلية (أشعب/ جحا/ أبو العبر/ ماني الموسوس[9].

أشكال السيرة العربية:

تفرعت عن السيرة أربعة أشكال سيرية، تتفق جميعا في التعريف بشخصية ما أو أكثر، وتختلف في طريقة السرد وصلة الكاتب بالمدونة، وحجم المادة.

1- التراجم: هي أقرب إلى البحث الموجز حول حياة الأعلام، كان الباعث الديني سببا في ظهور التراجم وطبقات الرجال في شتى حقول الأدب والمعرفة، وكانت الغاية الأولى من العناية بالرجال هي خدمة الحديث النبوي الشريف ثم علم الفقه وخدمة الدين عموما. ثم اتسع موضوع التراجم ليشمل الشعراء والنحاة والقراء والصحابة والمفسرين والحكماء والأطباء والأعيان وأصحاب المذاهب والأديان، نذكر منها كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة (270هـ)، وحذا حذوه السلمي في كتابه "طبقات الصوفية" و"الطبقات الكبرى " لابن سعد و"طبقات الشعراء" لابن المعتز و"أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير (630هـ) و"إنباه الرواة على أنباه النحاة" للقفطي (ت 646هـ) و"طبقات القراء" الذهبي(748).

وغالبا ما تعد هذه المصنفات جزء من التواريخ، ولكن وجهات نظر المؤلفين وأساليبهم في سردها هي التي تمنحها طابعا أدبيا أو ذاتيا أو تاريخيا...، يتسم هذا النوع بالإيجاز والدقة والأمانة العلمية متأثرا بعلم الجرح والتعديل الذي اشتهر به علم الحديث في رواية الأحاديث النبوية الشريفة.

2- السير الموضوعية:

هي نوع من التراجم المستفيضة أشبه بالبحث القصصي المطول حول حياة علم من الأعلام المشهورة في الدين والأدب والسياسة والاجتماع وغيرها، تقدم شخصياتها كنماذج للتعليم والاحتذاء، تتسم عادة بالطول وتأتي في كتاب مستقل يتتبع جميع مراحل حياة الشخصية موضوع الكتاب. ونموذجها الأول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي شكل كتابي عربي خالص، تطور وتوسع واستمر وعرف بعض الإضافات والتحديث، مثلما فعل العقاد في عبقرياته التي عمد فيها إلى التحليل الموضوعي ولم يكتف فيها بالسرد القصصي المعهود[10]

أقدم نماذجها "سيرة عمر بن الخطاب" لابن الجوزي(ت597هـ) و"سيرة صلاح الدين الأيوبي" لابن شداد (ت 632هـ) و"سيرة أحمد بن طولون" للبلوي و"الروض العاطر في سيرة الملك الظاهر" للبدر العيني(ت 855هـ) [11].

تحكم السير الموضوعية قواعد محددة منها اختيار شخصية استأثرت باهتمام الناس وكان لها تأثيرها الواضح في زمانها وبعده، وانتشرت مآثرها، الوقوف المفصل عند شخصية السيرة، وتبرير الكتابة عنها، تركيز السيرة على المكانة التي بلغتها الشخصية واستدعاء الكثير من المرويات والأخبار حولها[12].

3- السير الذاتية: هي شكل من أشكال السيرة يتكفل فيها صاحب السيرة بالكتابة عن نفسه وعرض مساره الشخصي وبخاصة الفكري وعرض أعماله ومواقفه، ويرتبط هذا الشكل السيري عادة بالعلماء والفقهاء والفلاسفة والمؤرخين. هناك من عد هذا النوع مستحدثا في الثقافة العربية، وأن العرب قلدوا فيه اليونان (فأول من ترجم لنفسه جالينوس)، اهتم العرب بالسير الذاتية ليس من باب المباهاة والعجب وإنما بدافع التأصيل للمذهب والفكرة والمنهج، وإفادة السابق للاحق. من نصوصها المبكرة "سيرة سلمان الفارسي (ت36هـ) وقد أسندها الخطيب البغدادي إلى ابن عباس (ت68هـ)، وسيرة الواقدي (ت206هـ) أوردها ابن سعد.

استأثر هذا الشكل باهتمام المفكرين والعلماء والمؤرخين ورجال الدين في النصف الأول من القرن الثاني، فظهر عدد من السير الذاتية لشخصيات بارزة أمثال: الرازي/ ابن الهيثم/ ابن رضوان/ حنين بن إسحاق/ ابن الجوزي/ ابن خلدون/ الغزي/ المرادي/ ابن حزم/ السيوطي/ ابن حجر العسقلاني/ المحاسبي/ الشعراني... ولم يقتصر الأمر على سير ذاتية موجزة في كتب الطبقاة مثل سيرة ابن عربي وحاجي خليفة والعماد الأصفهاني، فوردت سير ذاتية مطولة ومستقلة بكتب نذكر منها: سيرة الداعي هبة الله الشيرازي وسيرة ابن خلدون وسيرة الغزالي وسيرة ابن طفيل.

وهي في معظمها سرد محايد يغفل الجوانب الوجدانية، وجلها جاء بأسلوب مباشر، فنادرا ما نجد الرمز والتلميح والإيماء مثل ابن طفيل في حي بن يقظان التي عدها عبد الله إبراهيم سيرة ذاتية . وأغلب هذه السير تستدعي على عجل مرحلة الطفولة، وتركز الاهتمام على المركز الاعتباري الذي صار إليه صاحب السيرة، وتنفرد سيرة أبي حامد الغزالي بالانصراف الكامل إلى المرحلة الأخيرة من مراحل تكونه الفكري، مرحلة النضج والثبات على الموقف العقدي والفكري الأخير "طريق السالكين الزاهدين[13].

4- السير الشعبية:

تنتمي إلى مرويات العامة المتعددة الرواة والمصادر وهي أشبه بالملاحم تتزاحم فيها النصوص والمرويات، ففيها نجد الشعر الشعبي والشعر الفصيح والسردالمتشعب المطول ، تولدت في مجال المشافهة، رواها منشدون في ساحات المدن العربية الكبرى وفي المجالس والمسامرات قبل وصولها حديثا إلى المطابع، فقد تشكلت في منأى عن الثقافة العربية الرسمية المتعالية التي تعنى بأخبار الخاصة، مما أدخلها في دائرة المسكوت عنه أو الهامشي والنظر إليها بازدراء وعدم اهتمام، وأدى إلى تغييب الأصول الأولى للمرويات الشفهية، والجهل بطرق تكونها وأسباب ظهورها.

لظروف ودوافع كثيرة أدرك الوسط الثقافي العربي المعاصر مؤخرا قيمة السير الشعبية ومدى الحاجة إليها، باعتبارها نصا يذكر[14]:☹بالأمجاد ويدفع إليها، أهمها هذه الدوافع بإيجاز

- النزوع التحرري القومي: في ظل الاستعمار المهيمن على كل الأقطار العربية، كان لا بد من بحث عن مقومات الذات العربية وعناصر وحدتها وقوتها وصمودها لتحصين الذات العربية وتحفيزها، فكانت السير الشعبية بمثابة المادة الموحدة والمحفزة على الدفاع والصمود وبعث الهمم.

- ارتباطها بالبطولات العربية والأمجاد القديمة، وتعلق الشعوب العربية بهذه الجذور والذكريات المشرقة في زمن اشتداد الحروب الصليبية وتكالب الغرب على العالم العربي والإسلامي، وهروبهم إليها في ظل الهزائم والنكبات.

– ولا نغفل الدافع الأدبي لما فيها من سرود ممتعة وتخييلات خصيبة.

– ظهور فكرة الشعب العربي: المحملة بشحنات سياسية وتحررية، مما دفع إلى الرغبة في إحياء كل موروث عربي مهما كانت صفته ولغته، فقد عرفت الدراسات النقدية العربية المعاصرة التفاتة قوية إلى الأدب الشعبي عامة باعتباره إحدى مكونات الهوية العربية وإلى السير الشعبية بصورة خاصة تحقيقا ودراسة ونقدا، منها:

– فاروق خورشيد: أضواء على السيرة الشعبية.

– نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمة.

– عبد الحميد يونس: دفاع عن الفلكلور، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي.

– محمد رجب النجار: قراءة في سيرة حمزة العرب.

– أحمد محمد الشحاذ: الملاحم والسير الشعبية العربية.

– عبد الرحمن أيوب: الآداب الشعبية والتحولات التاريخية.

– البعد البطولي والقومي: بانتمائها إلى البيئة العربية غالبا وبما تحمله من أبعاد بطولية قد تصبح نموذجا مثاليا للنهوض من الكبوات واستعادة الوجه الحضاري المشرق للبلاد العربية فقد أصبحت العودة إليها أكثر من ضرورة باعتبارها نصا مشرفا للذات العربية في زمن انكسارها وتخلفها، وإن كانت الحروب والمعارك التي لا تهدأ موضوعها الأساس ففيها موضوعات أخرى متنوعة منها العاطفي والإنساني العائلي والروحي والديني والعجائبي .

المحاضرة السادسة مضامين السيرة الشعبية

مضامين السيرة الهلالية

مضامين سيرة سيف بن ذي يزن

مضامين سيرة الأميرة ذات الهمة

مضامين سيرة ....

الأستاذة الدكتورة سكينة قادور